ندى إبراهيم

لوعة الفراق

أيار ١٩٤٨. .

أنظر إليكِ فيتضاعف الأسى، منطوية على نفسكِ في خيفةٍ ورجفة محتضنة رضيعنا الذي لم يكمل عامه الأول بعد، الدموع تتناثر بلا توقف وشعرك الذي يشبه سواد الليل مُشتت، في عينيكِ ضجيج وصراخ لا تقوين على البوح بهما، أسفًا لكِ يا حبيبتي البكماء على ذاك الذل وتلك المهانة. .

مختبئين بالقبو كقطيع من الجرذان ليس بوسعهم سوى الانقياد لذاك الاحتلال، صوت الطلقات يقترب وأصوات جنودهم تعلو، باحثين عن من يفتكون به وأن كان من الإبرياء، خطواتهم تتسارع نحونا ونحن بلا حيلة خاضعين للأمر، قبلتُ رأسكِ واحتضنتُ طفلنا وتلفظتُ الشهادة لعلها لحظاتنا الآخيرة. .

اقتحموا قبونا وبقلوبهم المليئة بالقسوة أطلقوا الرصاص غير آبهين لصراخ ذاك الرضيع واستغاثة النساء وكأن ليس لهم غاية سوى إبادتنا ليظفروا بكِ يا قدسنا، استسلمنا رُغمًا عنا وكيف لنا أن نواجه كيد هؤلاء الطغاة الظالمين، ذهبوا بعدما تأكدوا من أننا قتلنا جميعًا.

بعد عدت دقائق اتضحت الرؤية. .

دماء متناثرة في الأرجاء، نيران مشتعلة كقلبي المتقد من فرط الألم، أُقتحمنا ودُمرنا وبات منزلنا فتاتا، لم يعد بوسعي سوى البكاء على الأطلال، هل أبكي عليكِ يا قدس أم على فراق حبيبتي الحسناء. .

ببطء زحفتُ إليها أحاول إفاقتها ولكن الموت قد حان، مازال الصغير يبكي ذهبتُ إليه وحملته متمنيًا من الله حفظه، ركضتُ به بالرغم من تلك الرصاصة المستقرة بقدمي اليسرى رحلتُ به إلي المشفى أملًا في إن أنقذه

وحينما بلغتُ إليها كان الأوان قد فات. .
تمت مراسم دفنكما معًا، حبيبتي ورفيقة الدرب أبكرتِ الرحيل مازلت أرفض الخضوع للأمر، نظراتك الباسمة وحدها كانت تصبرني على المشاق وأحضانك الدافئة تغنيني عن كل الصعاب وكيف لي أن أبقى بدونكِ، الروح لا يملؤها سوى شجن والفؤاد مليء بالحزن.
تذكرتُ يا حبيبتي روعة اللقاء وكيف أني سقطت متيمًا بهواكِ حين رؤياكِ، حينما نظرتُ إلي عينيك البتارتين من نظرة أغرمت بهما ولم أقوَ على نسيانك.
رؤيتكِ أسكرتني ودمع عينك أربكني، شهية كنتِ، أمعنتُ النظر بكِ رُغمًا عني وحاولت استقصاء سبب الحزن من عينيكِ، فأطرقتُ في خجل كي لا أخدش حياءك، تحاولين ضم تلك الخصلات الهاربة ولكنكِ تخفقين فتنسدل مرة أخرى كأوراق الشجر التي تحاوطكِ، وحدكِ كنتِ لم يكن معك من يجفف دمعكِ ويطمئن قلبكِ. .
ترددتُ بالذهاب نحوكِ كي لا تعرضي عني، تقربتُ إلي مقعدكِ في محاولة بائسة لأهدئ من روعك ولكن أنينكِ يزداد بكوب من الماء مددتُ يدي لعلكِ تأخذيها فأخذتيها في أدب، حاولت مرارًا معرفة اسمكِ ولكنكِ عنيدة كالصخر لا تتفوهين بكلمة فتنظرين إلي آسفة ازداد البكاء مرة أخرى ونظرات الجميع تحاوطنا تنطوين على نفسكِ في ارتعاد ورعشة لم تهدئي إلا حينما أتى أخوكِ، عانقتيه وكأنه هو الحمى والأمان، فجفف دمعكِ وأسكن تهدج أنفاسكِ، شكرني على ما فعلته معكِ ولكنكِ لم تتفوهي بكلمة فكفاني شكر عينيكِ ذهبتما دون وعد بالإياب فتوهج الفؤاد واتقد خوفًا من عدم اللقاء، شاء القدر أن تتلاقى أرواحنا مرة أخرى، علمتُ حينها لماذا كنتِ حزينة وخائفة في تلك المرة التي رأيتكِ بها، بكماء صماء أنت منذ ولدتي وقد

كنتِ تائهة وخائفة ألا تري شقيقكِ مرة أخرى، مازلت أتذكر كيف توردت وجنتاكِ خجلًا حينما كتبتُ لكِ أني أحبكِ لم تجيبي سوى بعينيكِ فلغتهما أقوى ألف كلمة، الفؤاد لا يملؤه سوى أسى على فِراقكِ والدموع لن تشفي يومًا ألم رحيلكِ، الذنب سيظل بداخلي فضعيفًا كنت لم أقوَ على أن أنقذكِ أنتِ وملاكنا الصغير أستندثر كل تلك الأحلام التي تواعدنا بتحقيقها معًا، ألن نظل معًا حتى يعتلي الشيب رأسنا ويشب صغيرنا. .

هل أكتب لكِ رثاء الآن أم رثاء لذاتي التي باتت تشبه الفتات، ستظلين أبد الدهر بالفؤاد فإنه لغير هواكِ لا يخضعُ وذكراكِ لن تندثر مهما طال الزمان ولو أن الأمر بيدي لأتيتُ إليكما لتطمئن الروح ويعم السلام ولكن لن نلتقي إلا حينما أثور لكما وأخذ حقكما من كل معتدٍ جبار، حتى تعود قدسنا المباركة فتزول الغمة ويأتي الهدوء فالفَلاح سيكون حليفنا فإن الذل لا يقبل على أرض العزة والكرامة، ستعود القدس ويُشفى الجرح مهما طال الانتظار.

****